جسد المرأة بين المتعة والنسق الثقافي

قراءة في رواية شرفة العار لـ إبراهيم نصر الله

أ.م.د. آلاء محسن حسن

جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية – العراق

alhassenyalaal@gmail.com

الملخص :

تهدف هذه الدراسة الى الكشف عن مفهوم الجسد في رواية (شرفة العار) لـ إبراهيم نصر الله التي احتفت بالجسد بوصفه ظاهرة اجتماعية وثقافية من خلال نمط العلاقات العاطفية والجنسية التي تحكمت في البناء الفني والسردي للرواية .

إن مقاربة الجسد في الرواية يحظى بأهمية كبيرة لما يطرحه من أبعاد دلالية وايدلوجية شكلت ركيزة مهمة في النتاج السردي ، فالمرأة في رواية (شرفة العار) لا يتم النظر اليها بوصفها بناءً ثقافياً ينتج مجموعة من السلوكيات والقيم فحسب ، بل تحيل على مرجعيات اجتماعية وثقافية تنتج مدلولات مهمة ترتكز في بناء معناها على التمثيل الجسدي داخل المتخيل السردي .

الكلمات المفتاحية : (الجسد ، المرأة ، النسق).

The Woman's Body between Pleasure and Cultural Pattern / Reading in the novel "Balcony of Shame" by Ibrahim Nasrallah

dr. Alaa Mohsen Hassan

Al-Muthanna University / College of Education for Human Sciences - Iraq

Abstract :

This study aims to reveal the concept of the body in the novel (Balcony of Shame) by Ibrahim Nasrallah, which celebrated the body as a social and cultural phenomenon through the pattern of emotional and sexual relations that controlled the artistic and narrative structure of the novel.

The approach to the body in the novel is of great importance because of the semantic and ideological dimensions it presents, which formed an important pillar in the narrative production. The woman in the novel (Balcony of Shame) is not only viewed as a cultural construct that produces a set of behaviors and values, but also refers to social and cultural references

that produce connotations. A task based on building its meaning on the physical representation within the narrative imagination.
Keywords: (body، woman ،Layout).

مدخل : (مفهوم الجسد)

يعد موضوع الجسد من المواضيع الثقافية والاجتماعية المهمة التي تستحق الوقوف عندها والبحث في دلالاتها ، وهو في الرواية يشكل ثيمة فنية مهمة تحيل على مرجعيات ثقافية واجتماعية تختلف باختلاف المجتمع الذي يصدر عنه النص الروائي ، إذ أن " وجود الإنسان وجود جسدي . والمعالجة الاجتماعية والثقافية التي يعد موضوعاً لها ، والصورة التي تتكلم عن عمقه المخبّأ ، والقيم التي تميّزه ، تحدثنا أيضاً عن الشخص ، وعن المتغيرات التي يمر بها تعريفه وأنماط وجوده ، من بنية اجتماعية لأخرى ، وبما أن الجسد يوجد في قلب العمل الفردي والجماعي ، وفي قلب الرمزية الاجتماعية ، فإنه يعد محللاً له اهمية كبيرة في فهم أفضل للحاضر "[١] .

إن علاقة الإنسان بجسده " تنتج عبر مفهوم ثقافي اجتماعي يختلف من بيئة الى اخرى ومن عصر الى آخر ، إذ أن الجسد هو الصورة التي تحدد هوية الإنسان ، وهو المكان الصغير الذي يربط الإنسان بالمكان الأكبر – الوجود – ، كما أن حركة الجسد في المكان ، بمثابة تعبير رمزي يختزل حركة الزمان الكوني ، ففي بعده الثقافي يمثل تعبيراً عن علاقة يكون الإنسان أحد طرفيها ، وهذه العلاقة لا تتم إلا عن طريق الجسد "[٢] ، فالجسد هنا يعالج علاقة الانسان بالوجود وطبيعة هذه العلاقة هل تكمن بالمادة أم بالجوهر ، طارحا ثنائية الشكل والمضمون جانباً .

يمثل الجسد مفهوماً جامعاً فهو " يعني الحقيقة الفيزيائية والعقلية ، التي هي نحن أي جسدنا ، والمراد بالجسد هو ذلك الكائن الحي ، بما هو منبع الوعي والفكر والحركة ،، إنه أصل ينبع منه كل شيء غامض لأشكال الفكر وأشكال الوعي "[٣] ، وأما عن حقيقة الجسد فـ " تتمثل في كونه يحتل مكانة هامة في حياتنا اليومية ،

إنه المبدأ المنظم للفعل والهوية التي نعرف وندرك بها ونصنف من خلالها ، وهو أيضاً الواجهة التي تخون نوايانا الأكثر سراً ، ليس غريباً أن نلح في الحديث عنه ونتغنى بجماله ونربت عليه ، وننصت إليه في قوله أوفي فعله ، وفي جده وهزله في سكناته وحركاته وفي إيماءته وفي لغته "[٤] .

ولو بحثنا عن لفظة الجسد في الثقافة العربية والغربية ، فسنجد أن مفهوم الجسد في الثقافة العربية القديمة لا يخرج " عن المعنى الحسي أو اللغوي إذ أجمع معظم المفكرين والفلاسفة العرب القدامى على ان الجسد اصطلاحاً يتمحور حول كونه جوهر قابل للأبعاد الثلاثة ، أو كل ما يشغل حيزاً ، أو ما له حدود وأبعاد فيزيقية ، أو كل ما يمكن ادراكه بصرياً " [٥] ، وقد خالفت الثقافة الغربية القديمة هذا التحديد لعمومية الجسد وخصوصيته ، من خلال ما قدمته من دلالات ارتبطت بالبعد الانطولوجي للكلمة في الفلسفة الغربية ، فمعنى الكلمة في اللاتينية واليونانية لم يبتعد عن وصف الجسد بأنه البنية الجسمية أو الكلية أو الإجمالية التي تعبر عن حضور الجزء المادي للكائن الحي بصورة عمومية ، في حين يرتبط الجسد عند الغرب بالبعد الفلسفي المادي والمثالي ، فالمادية حددت الجسد بأنه الشيء الثابت والباقي في مكان معين ومدة زمنية محددة ، والمثالية عرفت الجسد بأنه شيء عقلي يستمد وجوده من الفضاء الحسي [٦] .

يتداخل مفهوم الجسد مع مفاهيم أخرى مرادفة له كالجسم والبدن والجسدية ، وكلها " تحوم حول معنى واحد هو الجسد ، كلها ولدت تصورات ومعتقدات في ماهيته وتكوين طبيعته وكيفية ارتباطه بالروح ، من تنوّع في التعامل مع الجسد عضواً بعضو ، هذه كلها تختلف وتتنوّع باختلاف الأديان السماوية والإنسانية ، وكثيراً ما يرد

الجسد في شكل ثنائية بمعنى الشيء المادي والحسي أو الشكل الظاهري ،وترد الروح بمعنى الشيء الأزلي الأبدي "[٧] .

ما ندركه أخيراً أن الجسد الإنساني " ليس معناه المادة والشكل وحسب فهذا التسطيح المعرفي ليس يوصلنا الى شيء ، إلا أن نفهم كيف تقوم تلك الأيديولوجيات والسياسة والثقافة والمجتمع والتقنية مجتمعة بترك نقوشها عليه أو كشف تلك الأساليب السلطوية الإكراهية المتدخلة فيه وبه ، فالجسد ليس كياناً مجرد أو بنية ساكنة فهو مجال نشط دينامي يختبرنا من خلال تحولاته وتغيراته ، فالجسد لم يكن يوماً صامتاً فبلغة علوم اللسان هو نص يحمل حمولات ثقافية واجتماعية تستدعي استقرائه دائماً وتفكيكه . علينا أن نهتم بهذا المنظور التحليلي الدلالي والسوسيولوجي والانثروبولوجي لنقترب أكثر من فهم الظواهر الإنسانية المعقدة ، فهويتنا الفردية والجنسية والجندرية لها علاقة وثيقة بحقل تشابك العلاقات السلطوية حوله ، فالذكورة والأنوثة لعبة في علامة الجسد وهذا ما يكون مهماً في الدراسات الثقافية الجسدية "[٨] .

أن وكد هذه الدراسة هو الكشف عن الكيفية التي وظّف بها إبراهيم نصر الله الجسد كدالة لغوية ومكانية وزمانية تتعلق بأفعال الشخصيات وتأثيرها على عناصر السرد الأخرى ، فضلا عن التساؤلات الأخرى التي يطرحها نص (شرفة العار) والتي من أهمها : هل هناك نظرة اقصائية للمرأة ؟ وهل يتم التعامل مع المرأة على أنها ثقافة دونية ؟ وهل تعمد المرأة الى رسم صورة ثقافية لنفسها ؟ هذه التساؤلات وأخرى غيرها سنجيب عنها ونحن نقوم بدراسة الجسد وفق ثنائية المقدس والمدنس فضلاً عن قضية انتهاك الجسد .

أولاً : الجسد الرغبة / (المدنس)

يدل الجسد الإنساني " على بنية الشخصية الإنسانية من خلال ما تقوم به من أفعال ، أو من خلال ما تظهره أو تضمره من رغبات ، ولا يمكن فصل الجسد عن الروح لأنهما بنيان متكامل . وفي العمل الروائي يعتبر الجسد محوراً رئيسياً في عملية بناء النص الروائي ؛ لأنه يعبر عن كل ما يطرأ على شخوص العمل من تحولات ، ويتتبع مراحل تطورها ونموها "[٩] .

إن نص (شرفة العار) يتقاسمه جسدان : أولهما شبقي رغبوي دنيوي باحث عن اللذة والمتعة من خلال الجسد الأنثوي ، وثانيهما مقدس تتجلى توصيفاته عبر الأم والزوجة والحبيبة . والنمط الأول يتمظهر من خلال الخطاب الروائي في صورة المخيال الذكوري العربي للجسد ، من خلال اختزاله الى جسد رغبوي أنثوي عبر الشخصيات : أمين أخ منار ، ويونس صديق أمين وسائق التكسي ، وعصام زميل منار في الجامعة ، هذه الشخصيات تقدم بوصفها حاملة للقيم الذكورية ذات الطابع الفحولي والباحثة عن اللذة بصورتها الجسدية والحسية الاستهلاكية ، ضمن نسق ثقافي محدود الرؤية لا يؤمن بالتواصل الإنساني إلا من خلال الوصول الى جسد الأنثى [١٠] .

في نموذج أمين (أخ منار) يقول إبراهيم نصر الله " انحنى ، تناول الكيس ، رمقها بنظرة جافة وهو يهم بالخروج ؛ عند ذلك أسندت ظهرها الى الباب ، سادةً طريقه ، ضحكت : "صدّقت" ؟ ! وراحت تدفعه بصدرها نحو السرير ، دون أن تكف عن التحديق في عينيه مثل قطةً جائعة " [١١] . إن الشخصيات هنا تعكس فعل الارتواء الشبقي من الجسد الذي يحدد لها تصرفاتها المستقبلية ، على أساس امتلاك الجسد لمدة زمنية محددة ، وبذلك تكون رغبة امتلاك الجسد هي المحور الذي تتمركز حوله

العلاقات الجسدية وتنطلق منها الأحداث ، الأمر الذي يعكس الخواء الروحي الذي تعيشه الشخصيات ، والذي يدفعها نحو البحث عن اللذة الجسدية بلا توقف ، وبذلك يتحوّل الجسد الى أداة للإشباع الجنسي ، ودليلاً على الفحولة المنقوصة ، فالجسد هنا تتحكم فيه رؤية الدنيوي في مختلف تجلياتها والمدنس الذي تمثل في أن العلاقة بين الجسدين (أمين / تمام) خارج الإطار الشرعي والعرفي والاجتماعي وهنا يكمن البعد المدنس في الجسد .

وفي نموذج آخر لـ (أمين ويونس سائق التكسي) ، يقول الراوي " معاً ذهبا الى حاناتٍ ، وإلى ملاهٍ ليلية ، لم يتخيل أمين أن يونس يمكن أن يجتاز عتباتها ، تقاسما موسماً في الكرسي الخلفي للسيارة ، أكثر من مرة ؛ التقطتا اثنتين عن الرصيف مباشرة ، وانطلقا بهما الى طريق ريفي خارج المدينة وأعادا الفتاتين الى الرصيف ذاته وهما يلوّحان لهما مودّعين "[١٢] . يبين الكاتب هنا الثقافة الاستهلاكية ، تلك التي تحتفل بالجسد باعتباره مركزاً للذة بإخراجه في صورة جسد يشتهى ، وهو الى ذلك محل رغبة الآخرين ، وكأن العلاقة بين الجسد وعشاقه علاقة عرض وطلب قائمة على الحاجة والإشباع ، فالرغبة والمتعة قد فقدتا بعدهما التواصلي العميق والإنساني ، واستبدلتا بالشغف والنهم والاستعراض .

وفي نموذج (عصام زميل منار في الجامعة) يقول الكاتب " لم يحدّثها عصام طوال الرحلة ، وإن لم يكن ابتعد بعينيه عنها ، وحين لاحت منه نظرة لراحتيها اللتين استقرتا بين فخذيها ، وكانت تعتصرهما بشدة ، تحرّك فيه شيء ما هزّ جسده . في المحطة الأخيرة للحافلة هبطا . كان عليها أن تستقل سيارة أجرة تحملها لشارع قريب من بيتها . توجّه عصام نحو السيارة ليرافقها لكنها ، وبإشارة من عينيها أوقفته .

وهناك وقف في مكانه طويلاً متأملاً جسمها الصغير وهي تبتعد ، كما لو أنه يراه للمرة الأولى "[١٣] .

لقد سعى الكاتب هنا الى تجاوز الثقافة الاستهلاكية التي تشيّء الجسد وتقصيه وتحجبه ، عندما جعل من المرأة جسداً مثيراً لا بد من الإحساس بقيمته وإبراز معانيه ، كاسراً مستوى الأخلاق والفضيلة التي تدينه على سبيل توليد فعل صراعي بينهما ، فطوّع الجسد المدنّس دلالات المقدّس وقام بصهرها في دلالات حقله من خلال عملية توليدها وتذويبها وخلقها من جديد ، وهو نوع آخر من الانتهاك على مستوى الدلالات العامة للنص ، فحركة الجسد وما رسمته في النص من هدم وبناء هي حركة احتواء وهدم وتوليد جديد .

وفي مشهد سردي جديد يمثله (يونس مع منار) يتحوّل الجسد الى جسد جنسي ، يقول الكاتب " جرّها من إحدى ساقيها ، اصطدم رأسها بحديد السرير ، تراجع وجرّها أكثر ، بدأت تقاوم ؛ في تلك اللحظة رفع خنجره وهوى به نحو جسدها فتجمدت . توقّف رأس النّصل على بعد سنتيمترات قليلة في جسدها ، ثم تحرّكت يده بالخنجر نحو التقاء ساقيها . كان الخنجر يتقدّم وساقاها ترتعشان . وقبل أن تفيق من هول الرعب ارتمى عليها . سقط الخنجر اسفل السرير ، ولم يكن صعباً عليه أن يثبّت يديها . تلوّت تحت جسده محاولة إيجاد منفذ تخرج منه ؛ وقبل أن تستطيع أطلقت صرخة ، فوضع يده على فمها ، مواصلاً صعوده وهبوطه بجنون أكبر إلى أن انتهى . سحب نفسه من داخلها ، وهو يلهث ، فقفزت للزاوية من جديد محاولة تغطية جسدها بجسدها من جديد ..... أمرها بأن تتحرك ، تحرّكت ، فأبصرت هناك فوق الغطاء الأبيض للسرير بقعة دم ، كانت أكثر سواداً من أي دم رأته من قبل " [١٤] .

إن الجسد هنا يشكل وعاءً لتجربة جنسية ، إذ يعكس هذا المشهد السردي الشهوة الجامحة في الجسد المبتغى ، وهو مشهد تطل منه الخطيئة والإثم والدنس والشهوانية ، حيث يحاول يونس أن يقتنص ويرتشف من جسد الضحية (منار) لذته ليسوقها الى عالم الخطيئة ، حيث يختلط المقدس بالمدنس لكونه مشهداً سردياً يعكس الجسد المسجى في معبد الشهوة والرغبة .

ثانياً : الجسد المقدس والبعد الطهراني للجسد

الجسد الآخر في نص رواية (شرفة العار) هو الجسد المقدس الذي يدل على قيم الجمال والطهر ، وهو " يكتسب مشروعيته عندما يضع الناس حدوداً له ، لا يمكن تجاوزها إلا بخرق المحرّمات وانتهاكها ، لهذا يبقى المقدس خالداً في الذاكرة وعصياً على النسيان . والمقدس لا يتميز عن غيره ولا يكتسب دلالات التقديس والاحترام والتبجيل إلا باتساع حجم الطاقات الممنوحة له "[١٥] .

ويقدم نص رواية (شرفة العار) الجسد المقدّس في صورتين هما : الأم ، والزوجة أو الحبيبة .

١ – جسد الأم

يحتفي نص (شرفة العار) بالأم ويقدمها معادلاً موضوعياً للصبر والحنان ، وخير من يمثل جسد الأم في هذا النص الروائي هو (أم الأمين) " كانت أم الأمين قد التحقت ، فور إنهائها المرحلة الإعدادية ، لمدة عامين ، بمعهد مهني متخصص – فرع الخياطة ؛ تخرجت منه بتفوق وأكملت مشوارها ذاك بشراء ماكينة خياطة من نوع (سِنْجر) ، ومقص فاخر من الماركة نفسها ، واكتفت بالمنزل مكاناً لعملها ، وبعدد محدود من النساء زبائن لها ، لكن انتشار الملابس الجاهزة ، تركها وحيدة ما ماكينتها ومقصها آخر الأمر . ومع أنها لم تكن امرأة مدللة في أي يوم من الأيام ، إلا أنها

تعاملت مع نفسها أثناء الحمل ، بحرص شديد ؛ تتحرك ببطء ، ولا تقوم بأي حركة مفاجئة ؛ تنتبه لكل عتبة أو حافة ، تنظر للأدراج بريبة ، سواء صعدتها أم نزلتها ، وتحرص على وجود مسافة أمان بينها وبين أبو الأمين ليلاً ، مخافة أن تتحرك يده فجأة ، أو حتى قدمه أثناء النوم ، بسبب كابوس أو حلم ثقيل ، وتقع تلك اليد ، أو تلك القدم ، بقوة على بطنها "[١٦] . فالجسد المقدس الذي تمثله المرأة (الأم) هنا هو جسد واهب للحياة وساند للرجل يقوم بمنح الحياة والحنان ، ف أم الأمين أنموذج إنساني مغاير ومخالف للغة الجسد التي تطفح بها الرواية ، وعبر جسد الأم المقدس يختزل معنى العطاء الذي لا ينضب .

في موازاة جسد (الأم) المقدس يبزغ دور (الأب) الذي يعد معادلاً موضوعياً أيضاً للرعاية والحنان سواء مع الأم أو أبنائه ولاسيما ابنته الوحيدة (منار) ، إذ نرى على طول صفحات الرواية صورة للأب الحقيقي " أبو الأمين بأعوامه الستين يرقص خارج قدميه الثقيلتين وعموده الفقري الذي أنهكته سيارة التكسي على مدى سنوات وسنوات ،.... ، أبو الأمين الذي ظل يعمل ليل نهار حتى استطاع أن يوفر لها كل ما تحتاجه من أجل ان تكمل تعليمها . ... وصدق وعده : " سأزفك كعروس ، وأرقص يوم نجاحك على رموش عيني لو لم أستطع الرقص على قدمي "! "[١٧] .

إن دور الأب لم يكن فاعلاً فقط مع ابنائه بل حتى مع زوجة ابنه (أمين) التي أُهملت من زوجها فقد كانت " تئن ألماً . منذ أكثر من شهرين ، داهما مرض ما ، لم يعرفوا له اسماً ، ولم تسفر رحلاتها المتواصلة الى العيادات الحكومية ، إلا الى مزيد من الألم . أبو الأمين راقب الأمر بقلق شديد ، وبدأ يعمل على ادخار مبلغ يستطيع به علاجها في مستشفى جيد ، بعد أن شخّص أحد الأطباء مرضها مؤكداً ببساطة : " إنها تعاني من حصى في المرارة " "[١٨] . إن وجود الأب في النص

الروائي يعود الى وجوده الحقيقي في حياة ابنائه ، وهذا الحضور الفاعل للأب على المستويين المادي والمعنوي يقابله حضوراً فاعلاً آخر للأم .

٢- جسد الزوجة أو الحبيبة

وهو النمط الثاني للجسد المقدس في نص (شرفة العار) ، فالثنائية التي تشتغل عليها الرواية هي ثنائية العهر / الطهر ، والصورة الأولى تتضح مع الجسد الرغبوي (المدنس) ، أما الثانية فتتجلى مع الجسد المعشوق (المقدس) ، وهذا يتضح من خلال الاستخدام الخاص للغة ، إذ تغيب المفردات الدالة على اللقاء الجسدي والأوصاف الدالة على المناطق الحساسة في الجسد ، لتحل بدلاً عنها لغة بعيدة عن الغريزة واللذة وقريبة من الطهر والجمال السامي والحب ، يقول الكاتب واصفاً (نبيلة) زوجة (أمين) " نبيلة ، المرأة الطويلة ، ذات الملامح الطافحة بالحنان ، نبيلة التي لا تستطيع البوح بنصف ما في صدرها "[١٩] .

إن الكتابة بهذه اللغة عن الجسد ترفع من قيمة الجسد الأنثوي ، وتحوّله الى قيمة ثقافية بعيدة عن الغريزة والإثارة ، فإبراهيم نصر الله لم يعمد كلياً في مشاهده الأنثوية الى تشويه الجسد وعرضه بوصفه ثقافة دون وامتهان ، بل دفع بالجسد الى السمو والارتقاء ، فالمرأة عندما تقدّم على أنها أم أو حبيبة أو زوجة من دون الالتفات الى الغريزة ، فهذا يعني أنها أصبحت معطىً ثقافياً متصل بالرؤية الإيجابية للمرأة على حساب تراجع الرؤية السلبية ذات البعد الغريزي ، وهذا ما نجده أيضاً عند وصف (منار) ، يقول الكاتب " بمجرد أن دخلت منار المول ، أحست بدوار غريب ، إذ بدا مشهد الناس فوق السلالم الكهربائية المتحركة ، مع كل تلك الأضواء الساطعة ، أشبه ما يكون بمشهد مقتطع من فيلم خيال علمي . أحست رأسها فارغة تماماً ، وحين وضعت قدمها على أول درجة في السلم الصاعد ، هيىء لها أن نهاية السلم موجودة ،

لابد هناك في السماء ! لاحظ عصام ذلك ، لكنه لم يجرؤ على مد يده ليمسك بيدها وسط تلك القيامة الأنيقة . اكتفيا بالجلوس الى طاولة بعيدة في داخل مقهى ، كانا الوحيدين هناك ، أما بقية الزبائن فكانوا في الخارج ، جزءاً من حركة المول . بحث عصام عما يمكن قوله ، فعثر في زاوية مهملة من ذاكرته على تلك الطرفة ؛ بلا مقدمات قالها ، وللحظة بدت بالنسبة إليه أنها بلا معنى ، وأنه صاحب أثقل دم في العالم ، لكن النتيجة كانت باهرة . إذ راحت منار تضحك الى ذلك الحد الذ شعر معه بالخوف وهو يتلفت حوله : شرطي محشش أمسك إرهابياً وبدأ يضربه بعنف شديد وهو يسأله : اعترف كم مرة فجّرت نفسك ؟ ! أشرق وجهها ، وبدت كفتاة يابانية فعلاً ، بشعرها القصير ، وبشرتها النضرة ، ووجهها الصغير ، وعينيها اللتين اتسعتا ثلث وجهها على الأقل "[٢٠] .

إن هذه العلاقات المتأسسة على البعد الإنساني تنأى بالمرأة عن النظرة الأحادية التي لا ترى فيها إلا جسداً تسير في خطٍ موازٍ للعلاقات ذات البعد الرغبوي، فعلاقة (عصام) بـ (منار) هي علاقة روحية لا صلة لها بالجسد الفائر الباحث عن اللذة .

ثالثاً : انتهاك الجسد (القمع)

إن انتهاك الجسد الإنساني وإن كان يمارس تحت ضغوط اجتماعية أو سياسية أو ثقافية معينة ، إلا أن ذلك يعد انتهاكاً لحرمة الجسد وقدسيته كونه مكاناً يمارس فيه وبه الفرد سلطته ويكون حميماً وأليفاً مثل الدار [٢١] .

إن قضية القمع أو الانتهاك من القضايا الإشكالية التي طرحتها الرواية العربية ، و هي واضحة المعالم في خطاب نصر الله الروائي وإن كانت بدرجات متفاوتة ، ذلك أن العنف الاجتماعي هو الأكثر حضوراً في نص (شرفة العار) ولا

سيما بشكله الفردي وليس الجمعي ، ويعرض الانتهاك الجسدي الذي تعرضت له (منار) بطلة رواية (شرفة العار) لتجربة جنسية مكتملة من قبل سائق التكسي (يونس) الذي كان يعمل على سيارة أبيها ، وقد تركت هذه التجربة في نفسها أثراً كبيراً ، بل بسببها تعرضت (منار) الى القتل من قبل الأهل بتهمة الشرف في نهاية الرواية ، يقول الكاتب : " فجأة فتح يونس باب السيارة من الخارج ، وفي أقل من ثانية أحسّت منار ببرودة نصل ذلك الخنجر على رقبتها " سأذبحك إذا تنفست "! شلّتها المفاجأة ، أمرها بصوت خشن وعرٍ لا يشبه صوته أبداً : " انزلي بهدوء " نزلت دفعها أمامه ممسكاً بها بيد ، في الوقت الذي بقيت فيه اليد الأخرى قابضةً على الخنجر الملتصق برقبتها . كانت هناك درجتان ، لم ترهما ، تعثرت . كان يمكن أن تُذبح في تلك اللحظة بسهولة ، لولا أن يونس أبعد الخنجر بسرعة . " أتريدين أن تموتي ؟ افتحي عينيك "! ولم يكن لها عينان تفتحهما . أعماها الرعب تماماً ، وبدت كأنها على وشك السقوط في الهذيان . أما م باب تلك الغرفة الصغيرة ، وقف لحظة ، ثم دفع الباب بقدمه اليمنى فانفتح . دخلا . أغلق الباب بقدمه ، وفي حركة سريعة رفع الخنجر عن رقبتها ، ألصق ظهرها بالباب ، وأعاد الخنجر لمكانه ، وبيده الطليقة أدار المفتاح . في تلك اللحظة كان على ثقة من أن فريسته فقدت كل قوتها ، كما فقدت صوتها ؛ ارتمت يداها الى جانبيها كقطعتي قماش باليتين على حبل غسيل ، جرّها نحو ذلك السرير ، أشعل تلك اللمبة الحمراء الصغيرة ، التي يبدو أنه أعدّها خصيصاً لتلك اللحظة ، وتحت ضوئها الثقيل كان بإمكانها رؤية وجه الإنسان وهو يتحوّل الى وجه وحش ..... وقبل أن تفيق من هول الرعب ارتمى عليها . سقط الخنجر أسفل السرير ، ولم يكن صعباً عليه أن يثبّت يديها . تلوّت تحت جسده محاولة إيجاد منفذ تخرج منه ؛ وقبل أن تستطيع أطلقت صرخة ، فوضع يده على فمها ، موصلاً

صعوده وهبوطه بجنون أكبر الى أن انتهى . سحب نفسه من داخلها ، وهو يلهث ، فقزت للزاوية من جديد محاولة تغطية جسدها بجسدها "[٢٢] .

الانتهاك هنا مورس على الجسد وقد ترك آثاراً نفسية عميقة على الشخصية دفع بها الى محاولة الانتحار " أمسكت منار بالسكين بين يديها ، وجهت النصل الى بطنها ، رفعت يديها تهمُّ بطعن نفسها ، إلا أن يديها تشنّجتا "[٢٣] ، كما دفع بعائلة (منار) ولاسيما عمها (سالم) الى وضع الراية السوداء على البيت إيذاناً بقتل الضحية (منار) بذريعة غسل العار " هذه الراية لن ينتزعها من مكانها غير ذلك الذي سينتزع روح تلك الساقطة التي لوّثت شرف العائلة ، ونشرت سيرتنا الشائنة على كل لسان "[٢٤] ، وفي ختام الرواية ينهي الأخ (أمين) حياة أخته (منار) بتوجيه الرصاص نحوها " تقدّم أمين نحوها وضربها بكعب المسدس ، تأرجحت قليلاً ، ثم عادت تنظر إليه من جديد بصمت ..... وجّه مسدسه من جديد لجثة متار مفرغاً الطلقات كلها في جسدها ، وحين انتهى الرصاص راح يضغط على الزناد مرة تلو أخرى . رفع أبو الأمين عينيه ونظر صوب الجسد الساكن الغارق في بحيرة دم صغيرة "[٢٥] .

وفي نموذج آخر تمثله الشخصية (تغريد) تمارس الايديولوجيا الاجتماعية دورها في انتهاك قدسية الجسد الأنثوي لتضمن له العفة والطهارة ، يقول الكاتب : " أقدم المدعو (م. س . خ) على قتل شقيقته ذات الخمسة عشر ربيعاً بتوجيه تسع طعنات الى جسدها ، وبعد ذلك قام بتسليم نفسه للشرطة ، حيث أفاد بأنه قام بقتلها بسبب تفريطها بشرفها ، حين تبيّن له أنها أسلمت نفسها لأحد الشباب ..... وجرى تحويل المجني عليها إلى الطبيب الشرعي ، حيث تبيّن أنها حامل في شهرها الثاني ، وبعد إجراء الفحوصات اللازمة تبيّن أن القاتل هو والد الجنين ، وبمواجهته بالحقائق اعترف بأنه قتلها لأنها هددته بإخبار أمها وأخويها إذا ما واصل

الاعتداء عليها . وتم توجيه جناية القتل العمد للمتهم وتحويله للقضاء ليأخذ العدل مجراه "[٢٦] .

وتتداخل مع قضية القمع الأسري والاجتماعي الذي تعرضت له (تغريد) رؤية مأساوية أخرى تتحكّم في البناء الدرامي لنص (شرفة العار) ، وهو ما يتضح لنا مع الشخصية (لبنى) التي تعد حكايتها " واحدة من أشهر حكايات السجن ، لبنى التي فقدت عذريتها برغبتها ، بعد أن وعدها صديقها بالزواج ؛ لكنه في اللحظة الأخيرة توارى عن الأنظار ، وحين علم أهلها بما حدث ، كفّوا عن الكلام فجأة ، وبعد أقل من نصف ساعة ، أمضوها صامتين في غرفة مجاورة ، حدث ما حدث . حين وصلت الشرطة ، اكتشفوا أنها لم تمت ، لكن إحدى الطلقات عبرت بطنها ومزّقت الجنين ، نقلوها للمستشفى ، وبعد تماثلها للشفاء تم وضعها تحت الحماية . لم ينكر ذلك الشاب ما حصل عندما ألقي القبض عليه ، لكنه أكّد أن ذلك تم برضاها ، ولم يكن هنالك ما يدحض أقواله ؛ حتى هي نفسها ، اعترفت أن ذلك تمّ برضاها لأنه وعدها بالزواج . بعد فترة بسيطة أمضاها سجيناً عاد لحريته ؛ أما أخوها فلم يلبث في السجن سوى ستة أشهر ، لصغر سنه ودافعه لارتكاب الجريمة وتنازل الأهل عن حقهم ، وتنازلها ، على أمل أن يتناسوا ما حدث لها . "[٢٧] .

يقدم إبراهيم نصر الله هنا نموذج دال على انتهاك الجسد الأنثوي من قبل الأسرة والحبيب ، فالنصان محملان بدلالات الطمس والاستلاب والتدنيس . إن جسد (تغريد) و (لبنى) هو مثال على انفلات الجسد الأنثوي من الرقابة الأسرية والقيم الاجتماعية المفروضة ، لكنهما دفعتا حياتها ثمناً لذلك ،إذ " إن الفرد يقف هذه الوقفة التي تنبئ عنها بداية بأنها خاسرة "[٢٨] ، فـ (تغريد) و (لبنى) كانتا خاسرتين قبل أن تفقدا حياتيهما ، كونهما يمثلان الطرف الأضعف في هذه المعادلة .

الخاتمة ونتائج البحث :

بعد دراسة موضوع الجسد في رواية (شرفة العار) لـ إبراهيم نصر الله خلصنا الى جملة من النتائج نوجزها في الآتي :

١- تمثل لغة الجسد في رواية (شرفة العار) الرؤيا التي يحملها الكاتب إبراهيم نصر الله ، وفق سياقات ثقافية ، وأخرى ذاتية تخلقها الذات .

٢- استطاعت الرواية أن تكشف عن القيم الاجتماعية التي وضعت الجسد تحت سيطرة الفحولة العربية .

٣- تختلف صورة الجسد بوصفه قيمة ثقافية وأخلاقية من ثقافة الى أخرى حتى وإن اشتركت في بعض التيمات .

٤- عكس الجسد صراع القيم الحاصل بين ثقافة المجتمع والثقافة التي تخلقها الذات وتتحرك وفقها .

٥- إن فعل الثقافة الذكورية ، وقبول المجتمع على تثبيته وترسيخه ، هو الذي أنتج هذه الصورة الجسدية النسوية السلبية ، التي تحوّل فيها الجسد الى مجرد سلعة .

٦- إن الاشتغال على تيمة الجسد في رواية (شرفة العار) كان وفق منظوري المقدس والمدنس ، وقد ارتبط الجسد المقدس بالمدنس بعلاقة جدلية ، بحيث لا يتحدد أحدهما إلا من خلال الآخر .

الهوامش :

١- أنثروبولوجيا الجسد والحداثة ،دافيد لو بروتون ، ترجمة : محمد عرب صاصيلا ، المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٧ : ص ٥. ، سيد الوكيل ، ٣٠ يونيو ٢٠٠٨ maktoobblog.com : http/21122915- ثقافة الجسد /

٣- فلسفة الجسد ، سمية بيدوح ، دار التنوير ، بيروت – لبنان ،٢٠١٠ : ص ١٢.

٤- السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء – المغرب ، ٢٠٠٣: ص ١٩ .

٥- فكرة الجسد من الموروث الحضاري الى فلسفة نيتشه ، هجران عبد الاله أحمد الصالحي ، دار الفرقد ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٤ : ص ١٩.

٦- ينظر : المصدر نفسه : ص ٢٧- ٣٤.

٧- أيديولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة ، فؤاد اسحاق الخوري ، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٨ : ص ٦٩ .

٨- الجسد موضوعاً للدراسات الثقافية استقراء لأهم الإشكالات والمنجزات ، مولاي مراد الحاج وحطاب حطاب ، مجلة آفاق علمية ، المجلد ١٣ ، ع ٥ ، ٢٠٢١ : ص ٥٢٩- ٥٣٠.

٩- الجسد في مرايا الذاكرة ، منى الشرافي تيم ، منشورات ضفاف ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٥ : ص ١٣٠.

١٠- ينظر: أسرار الكتابة الإبداعية عند عبد الرحمن والنص المتعدد ، محمد صابر عبيد ، عالم الكتاب الحديث ، عمان – الأردن ، ط١، ٢٠٠٨ : ص ١١.

١١- شرفة العار ، إبراهيم نصر الله ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٠ : ص ١٤.

١٢- المصدر نفسه : ص ٨٦.

١٣- المصدر نفسه : ٣٤.

١٤- المصدر نفسه : ١١٣ – ١١٤.

١٥- المقدس (المصطلح والمفهوم) ، عبد العلي الدكالي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، بيروت – باريس ، ع (١١٨-١١٩) ، ٢٠٠١ : ص ٦٨.

١٦- رواية شرفة العار : ص ٣٧ – ٣٨ .

١٧- المصدر نفسه : ص ١١.

١٨- المصدر نفسه : ص ١٢.

١٩- المصدر نفسه : ص ٣١ .

٢٠- المصدر نفسه : ص ٥٠ – ٥١ .

٢١- أنثروبولوجيا الجسد والحداثة : ص ٥.

٢٢- رواية شرفة العار : ص ١١٢- ١١٤ .

٢٣- المصدر نفسه : ص ١٧٣.

٢٤- المصدر نفسه : ص ١٨٢.

٢٥- المصدر نفسه : ص ٢٣٢ -٢٣٣.

٢٦- المصدر نفسه : ص ١٢١ .

٢٧- رواية شرفة العار : ص ٢٠٤.

٢٨- اتجاهات الشعر العربي ، إحسان عباس ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، كلية الآداب ، الكويت ، ١٩٧٨ : ص ١٥٧ .

المصادر والمراجع :

- رواية شرفة العار ، إبراهيم نصر الله ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٠.

أولاً : المراجع

١- اتجاهات الشعر العربي ، إحسان عباس ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، كلية الآداب ، الكويت ، ١٩٧٨ .

٢- - أسرار الكتابة الإبداعية عند عبد الرحمن والنص المتعدد ، محمد صابر عبيد ، عالم الكتاب الحديث ، عمان – الأردن ، ط١، ٢٠٠٨ .

٣- أنثروبولوجيا الجسد والحداثة ،دافيد لو بروتون ، ترجمة : محمد عرب صاصيلا ، المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٧.

٤- أيديولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة ، فؤاد اسحاق الخوري ، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٨ .

٥- الجسد في مرايا الذاكرة ، منى الشرافي تيم ، منشورات ضفاف ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٥ .

٦- الجسد موضوعاً للدراسات الثقافية استقراء لأهم الإشكالات والمنجزات ، مولاي مراد الحاج وحطاب حطاب ، مجلة آفاق علمية ، المجلد ١٣ ، ع ٥ ، ٢٠٢١ .

٧- السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء – المغرب ، ٢٠٠٣ .

٨-- فكرة الجسد من الموروث الحضاري الى فلسفة نيتشه ، هجران عبد الاله أحمد الصالحي ، دار الفرقد ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٤

٩- فلسفة الجسد ، سمية بيدوح ، دار التنوير ، بيروت – لبنان ،٢٠١٠ .

١٠- المقدس (المصطلح والمفهوم) ، عبد العلي الدكالي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، بيروت – باريس ، ع (١١٨-١١٩) ، ٢٠٠١ .

ثانياً : المواقع الالكترونية

٩- ، سيد الوكيل ، ٣٠ يونيو ٢٠٠٨ http : maktoobblog.com /1122915 - ثقافة الجسد /